الأصل الديني للشعر العربي القديم وتجلياته العقدية قبل الإسلام

محمد الهاشمي
باحث في سلك الدكتوراه، جامعة محمد الأول
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة
المغرب

الملخص

تروم هذه الدراسة استجلاء الأصول الدينية للشعر العربي القديم من خلال الكشف عن الخيط الناظم بين بواكر الفن الشعري والممارسات الطقوسية والميتافيزيقية؛ حيث تتمحور إشكاليتها المركزية حول مدى تأثر القصيدة العربية في مرحلة ما قبل الإسلام بالمنظومات العقدية السائدة، وطبيعة الوظيفة الاجتماعية والدينية التي تقلدها الشاعر في محيطه، واعتمادا على المنهج الوصفي التحليلي القائم على استقراء الشواهد الشعرية ومقارنتها بالخلفيات البيئية والتاريخية، تبرز الدراسة أن الشعر شكّل حاجة مجتمعية ولسانا مركزيا تعاضدت مكانته مع الاعتقاد السائد بصلة الشاعر بالقوى الماورائية وتلقيه الإلهام من الجن أو السماء، مما جعل وظيفته موازية لوظيفة الحكيم أو النبي. وتتجلى نتائج البحث التطبيقية في رصد تفاعل الشعر مع أربع عقائد رئيسة؛ حيث تبيّن أن حضور الوثنية جاء عرضا وسياقاً نتيجة تهذيب الرواة أو التأدب مع الأرباب، في حين شكّل شعر الحنيفية ـ كأمية بن أبي الصلت ـ إرهاصا وجدانيا ممهدا للإسلام عبر مفاهيم التوحيد وقصص الأنبياء، بينما استوعبت القصيدة مصطلحات الدائرتين اليهودية والنصرانية ـ كالتوراة، والزبور، والصليب، والنواقيس ـ لخدمة التشبيه وصياغة التأملات الإنسانية حول الموت والمصير مع الحفاظ على قوالب النظم العربية الصافية، وتخلص الورقة البحثية في غايتها إلى إثبات أصالة العلاقة التاريخية بين الشعر والدين وممارساتها الطقوسية، والمركزية الوظيفية التي حظي بها الشاعر، فضلا عن مرونة اللسان الشعري القديم في استيعاب ومحاورة المنظومات العقدية المختلفة التي مهدت لوجود وعي ديني تشكّل وجدانيّا قبيل البعثة المحمدية.

مقدمة

نهدف من هذه المشاركة العلمية الإسهام في بيان الأصل الديني للشعر العربي القديم؛ إذ معلوم أن الشعر العربي سبقته إرهاصات وبواكر أولى قبل أن تتم له الصورة المتكاملة والنهائية التي وصلتنا من خلال العصر الذي سبق مجيء الإسلام؛ وقد طرحت عديد من التساؤلات حول طفولة هذا الشعر و البوادر الأولى له، وتبين أن التوغل في هذه المسألة قد يفضي بنا إلى نتائج غير مرضية، نظرًا لصعوبة تحديد الجذور الأولى، فالشعر عرفته أمم وحضارات سابقة على العرب.

ويمكن النظر إلى هذه الأصول الأولى للشعر العربي القديم من زوايا عديدة، حيث يمكن أن ننطلق من الأصل الإبداعي المصدري الذي يشمل [الإلهام، الوحي، الخيال، الوجدان، الصنعة، الإبداع]، أو من الأصل الجمالي الذي يشمل [الموسيقى والإيقاع، التصوير والتخيل، البناء والنظام، القيم الجمالية] أو الأصل الفكري الذي يشمل [الدين، التأمل، الطبيعة، المجتمع، الحضارة]، وانطلاقًا من الأصل الذي أخرناه، سنؤسس هذه المقالة من أجل تقديم رؤية وتصور مفيد يغني الموضوع، ويعطي صورة واضحة لأثر الدين في الشعر، وبيان التداخل القديم بينهما.

1. الدين والشعر: أي علاقة ؟

لا مراء في أن الشعر فن من الفنون التعبيرية الضاربة جذورها في القدم، وباعتباره يدخل في هذه الدائرة الموسعة لها، يمكن أن نبين الخيط الناظم بين الأديان خصوصًا البدائية وصلتها بالفن عمومًا، حيث نجد جان بارتليمي يقول : "كان الفن في المجتمعات البدائية مرتبطًا ـ عادة ـ بالسحر، لأنه كان يؤدي لدى الشعوب القديمة وظيفة مقدسة، ولقد ظل الفن هكذا، في خدمة الطقوس زمنًا طويلاً، لدرجة لم يكن يوجد فن إلا وكان فنًّا دينيًا"[1]، كما أن في الشعر معطيات متنوعة تبين أنه "يرجع إلى أصول تعبدية، سحرية دينية، موغلة في القدم بعيدة الغور في التاريخ (...) فثمة حشد من الكلمات المتصلة بالشعر في اللغات السامية واليونانية واللاتينية والجرمانية، كانت لها دلالة سحرية ومعان متعلقة بالطقوس"[2].

يقول علي البطل: "إن أدوات الفن في تلك المجتمعات لم يخترعها الساحر بالذات، ولكنها كانت موجودة، وتتمثل بالكلمة، والحركة، والإيقاع، والصخر الذي ينقش عليه الساحر رسومه في الكهوف. بيد أن الساحر كان يتميز بالاستخدام الخاص لهذه الوسائل والأدوات في الطقوس السحرية التي يستأثر هو وحده بالعلم بها، ضمن نسق متكامل من الممارسة الدينية للقبيلة، أو ما يمثل دينها وعقائدها"[3]، كما أشار إلى أن "ممارسة الفنان صارت ضرورة وحرفة، بعد امتناعه عن أداء الأعمال العادية داخل الجماعة، وصار عليه أن يتدخل بأعماله لإنجاح العمليات التي تقوم بها الجماعة من صيد وحروب، لذلك أخذ يطور صلواته وطقوسه، لتشمل التمثيل والرقص والغناء ورسم اللوحات، وأخذ يضيف إليها من التعقيدات، ما يجعلها غير قابلة للفهم تعميقًا لسلطته الاجتماعية"[4].

إن صلة الدين بالفن ظلت ملازمة للتطورات المتغيرة في المجتمعات البشرية، وبحكم هذا التطور، بدأ الفن والشعر ينفصل عن الدين، إذ "يمكن أن يظهر هذا واضحا في الأديان الكبرى، سماوية كانت أو غير سماوية، إذ تعج النصوص الدينية المقدسة بالعديد من المقاطع والأجزاء الشعرية، مثلما يلاحظ مثلا في القديم: أيوب، دواد، سليمان، وأرمياء صاحب المراثي"[5]، وهم ممن يجمعون بين النبوة والشعر، وقد تميزت

---

[1] . جان بارتليمي، بحث في علم الجمال، ترجمة: أنور عبد العزيز، دار النهضة مصر ومؤسسة فرانكلين، القاهرة، 1970، نقلاً عن كامل فرحان صالح، الشعر والدين فاعلية الرمز الديني المقدس في الشعر العربي، دار الحداثة، بيروت ط1، 2005، ص15.

[2] . مبروك المناعي، الشعر والسحر، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2004، ص10.

[3] . علي البطل، الصورة في الشعر العربي: حتى آخر القرن الثاني الهجري ـ دراسة في أصولها وتطورها، دار الأندلس، بيروت ط3 1983، ص39.

[4] . المرجع نفسه، ص 40.

[5] . كامل فرحان صالح، الشعر والدين، مرجع سابق، ص17.

أسفارهم في الكتاب المقدس بشعرية عالية الرقي الفني، ولكن قبلهم تم العثور على صلوات هي عبارة عن نصوص شعرية لإخناتون صاغها للشمس شعرًا راقيًا"[6].

إذن، يبدو جليا أن المجتمعات والحضارات ومختلف الثقافات، ارتبطت فيها الفنون بالدين والممارسات الشعائرية، كما يذهب إلى ذلك علي البطل، وقد استدل بعضهم لبيان قوة هذه النشأة في حضن الدين، بما رواه الكلبي (819م) في كتابه "الأصنام" من أن قبيلة "عك" كانوا إذا خرجوا حجاجًا قدموا أمامهم غلامين أسودين يصيحان: "نحن غرابا عك"، فتقول الجماعة بعدها ملبية:

عك إليك عانية .. عبادك اليمانية .. كيما نحج ثانية[7]

وقد علق علي البطل على هذا الطقس، ليثبت من خلاله نشأة الشعر في حضن الدين أو انبثاقه عنه: "وفي هذا الطقس وجوه شبه كثيرة من طقس يوناني سنوي، يقام للإله أبولو في أيونيا و أثينا، يقصد به التطهر، إذ كان يختار رجلان دميمان، ويلبسان عقودًا من التين المجفف، وفي نهاية الاحتفال يطردان من المدينة، ويطلق عليهما اسم "الفارمكون" بمعنى العاملين عمل العقار، إذ يعتقد أنهما قد حملا النحس عن المدينة إلى خارجها، فهل "غرابا عك" يعملان عمل العقار؟ وإلا فلماذا كانا ينبهان على نفسيهما بالصياح، لافتين أنظار الأرواح الشريرة إليهما بدلاً من القبيلة؟". ويضيف البطل قائلاً: المهم أننا نجد في هذه الشعيرة الطقوسية آثارًا شعرية في تلبية "عك"، وهي ثلاث شطرات من الرجز الذي تتجه أنظار الباحثين إليه رائين فيه البداية الأولى للشعر العربي"[8].

ولكن على الرغم من انفصال الشعر عن الدين، واستقلاله بنفسه، فإن "الاعتقاد ظل سائدًا على أن قوى الشاعر وملكته تمتاح غذاءها من القوى الغيبية، وأنه على علاقة بهذه الماورائية، حيث أخذ الشاعر من الدين قدسية الكلمة وسحريتها، والاعتقاد في التأثير السحري للكلمة وقوتها وفاعليتها السحرية، تماما مثلما كان الإنسان البدائي وإلى الآن في كثير من المجتمعات يستنزل المطر بالكلمات، وبالكلمات يعالج المرضى ويشفي الأكمه، ويلحق الأذى بل الموت بالعدو، وبالكلمة وقوتها أيضا، أن يحيي الموتى ويبعثهم إلى الحياة، كما أخذ معه من الدين بذرة من الأسطورة"[9].

2. الدين والشعر في المجتمع العربي القديم

إن وحي هذا المحور مستفاد من الدراسة القيمة للباحثين علي البطل و كامل فرحان صالح؛ إذ حاولا أن يستجليا هاته الروابط والصلات القديمة بين الشعر والدين وبيانها من خلال مجموعة من النصوص التي تدعم صحة مذهبهم، ثم إنهما حاولا أن يلامسا هذه الطقوس والشعائر من خلال حضور الشعر في المجتمع العربي القديم، وقد فصل القول الباحث كامل فرحان صالح في هذه المسألة، وإنا نسعى إلى تقديم زبدة الكلام فيما ذهب إليه، علنا نخرج بصورة واضحة لا غبش فيها عن هذه الأصل الديني للشعر العربي القديم.

يذهب الباحث إلى أن الشعر العربي في نشأته لم يكن شيئا عارضًا في حياة الإنسان العربي، بل إنه كان حاجة بيولوجية على حد تعبيره (...) بمعنى أنه كان مكونًا أساسيًا في نسيج المجتمع، ولا تخفى على دارس المكانة الرفيعة التي حازها الشعر عند العرب، فالعربي تربى على سماع الشعر ونظمه وحفظه، مثلما تربى على التأقلم في ظروف بيئة صعبة، فضاؤها الصحراء التي كانت موطن الأفكار والهواجس والمعتقدات لدى كثير من الشعراء العرب.

---

[6]. المرجع نفسه، ص17، وينظر: علي البطل، الصورة في الشعر، ص41.

[7]. ابن الكلبي، الأصنام، تح: أحمد زكي باشا، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب القومية 1924، الدار القومية، القاهرة 1965.

[8]. علي البطل، الصورة في الشعر، ص 51.

[9]. كامل فرحان صالح، الشعر والدين، مرجع سابق، ص20.

يقول ابن سلام الجمحي (846م) "والشعراء المعروفون بالشعر، عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام، أكثر من أن يحيط بهم محيط، ولو قصدنا لذكر من لم يقل من الشعر إلا الشذر اليسير، لذكرنا أكثر الناس"[10]، والأمر نفسه يؤكده ابن قتيبة (889م) في قوله:"قلّ أحد له أدنى مسكة أدب، وله أدنى حظ طبع، إلا وقد نال من الشعر شيئًا"[11].

فالشاعر كان لسان عائلته وقبيلته، فهو الحافظ لشرف أصلها وأنسابها، الرافع لشأنها، إذ كان بالشعر يعلو بقبيلته، ويحط من القبائل الأخرى، وقد كانت له سلطة مركزية، ووظيفة اجتماعية كبيرة، وغير خفي على الدارسين أن قبيلة العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل الأخرى فهنأتها، وأقيمت الولائم، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون في الأعراس.

يقول حسان بن ثابت (674م) قبل الإسلام مفاخرًا بقومه:

ولدنا بني العنقاءِ وابني مُحرِّقٍ ... فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

لنا الجفناتُ الغرّ يلمعن بالضحى ... وأسيافُنا يقطرنَ من نجدةٍ دما[12]

وفي أخرى، يهجو بني حماس، وهم بنو ربيعة بن كلب، قائلاً:

كأن رِيحَهُمُ في الناس إذا برزوا ... ريحُ الكلاب إذا ما بلَّها المطرُ

أولادُ حام، فلن تلقى لهم شبهًا، إلا * التيوسَ، على أكتافها الشعرُ[13]

وقد "كانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تنتج، وهذه الثلاثة كانت من أبرز مصادر القوة في الحياة العربية"[14].

وعلى هذا الأساس احتل الشاعر موقعًا مركزيا في حياة القبيلة، ويذكر نايف معروف أنه "كانت النساء الشاعرات يحرضن [بالشعر] الرجال على الأخذ بالثأر؛ فقد لامت أم ندبة زوجها حذيفة بن اليمان، وعيرته على قبول الدية من قتلة ولدها، ودفعته إلى الانتقام، والثأر، خشية أن يوصف بالجبن والخذلان، فأنشأت تقول:

حذيفةُ لا سلمتَ من الأعادي ... ولا وُقِّيتَ شرَّ النائباتِ

أيَقتلُ ندبةً قيسُ وترضى ... بأنعامٍ وسوقٍ سارحاتٍ

أما تخشى إذا قال الأعادي ... حذيفةُ قلبُه قلبُ البناتِ

فخذ ثأرًا بأطراف العوالي ... وبالبيض الحداد المرهفات

لعل منيتي تأتي سريعًا ... وترميني سهامُ الحادثات

أحبُّ إليّ من بعلٍ جبانٍ ... تكون حياته أردى حياةِ [15]

---

[10] . محمد بن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، تح: محمود شاكر، المدني، القاهرة، 1974، ص3.

[11] . ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، تح: محمود شاكر، دار المعارف القاهرة، 1982، ص 10.

[12] . حسان بن ثابت، ديوان ، شرحه وضبط نصوصه، وقدم له خوان عمر فارق الطباع، دار القلم، بيروت، د ت، ص 197.

[13] . حسان بن ثابت، ديوان، ص 116.

[14] . سامي العاني، الإسلام والشعر، عالم المعرفة، ع66، ص 7.

[15] . نايف معروف، الأدب الإسلامي، ص 91.

ويؤكد ابن قتيبة هذه المكانة الشريفة التي حازها الشعر عند العرب بقوله: "وللعرب الشعر الذي أقامه الله مقام الكتاب لغيرها، وجعله لعلومها مستودعًا، ولآدابها حافظًا، ولأنسابها مقيدًا، ولأخبارها ديوانًا، لا يرث على الدهر، ولا يبيد على مرّ الزمان، وحرسه بالوزن والقوافي، وحسن النظم، وجوّده التحبير من التدليس والتغيير"[16].

ولعل مما قوى هذه المنزلة الرفيعة للشعر، الاعتقاد الذي ساد بينهم بأن لكل شاعر جنيًّا يوحي غليه بالشعر، وإلهام شياطين تسكن في وادي عبقر[17]. ولعل أقرب مثال على ذلك، ما جاء في شعر امرئ القيس قائلاً:

تخبرني الجنُّ أشعارَها فما شئتُ من شعرها اصطفيتُ[18]

كما ساد اعتقاد أن الشعر يأتي من السماء، كما جاء في أحد أبيات حسان بن ثابت قبل أن يدخل إلى الإسلام:

وقافيةٍ مثل السنانِ رُزئتُها تناولت من جوّ السماء نزولها[19]

وقد خلص الباحث إلى أن الشعر في فترة ما قبل الإسلام كان يقوم بوظيفة اجتماعية موازية للدين، فوظيفة الشاعر في مجتمعه كانت موازية، أو بديلة لوظيفة النبي والحكيم، أو على الأقل، تمتعت ببعد ميتافيزيقي، طالما أن الشاعر يتلقى شعره "وحيًا" من الجن في وادي عبقر[20].

وقد سئل أحدهم عن الشعراء، فقال: "كانت الشعراء عند العرب في الجاهلية بمنزلة الأنبياء في الأمم، حتى خالطهم أهل الحضر، فتكسبوا بالشعر، فنزلوا عن رتبتهم"[21].

وإلى جانب فن الهجاء والمنافسة والمفاخرة بالمحامد، وشرف النسب، وغيرها من المواضيع المتعددة الحاضرة بقوة في القصائد العربية القديمة قبل مجيء الإسلام، سادت في أشعارهم أنفاس من الأبعاد الإنسانية، قلق و تساؤلات كثيرة، تشي بالتفكير في المصير المحتوم للإنسان وهو الموت، ولذلك كان يرى الشاعر أن الشعر تعويض بأن ثمة شيء منه يظل خالدًا بعد رحيله[22].

ويذكر الباحث كامل فرحان إضاءات أخرى مفيدة في هذا الجانب حيث رأى أن الشعر ارتفع عن مجرد كونه كلمات إلى مرتبة تقربه من القداسة، أو لعلها تصل إليه، وقد تجلى هذا الأمر في وجود عدد من الممارسات تنحو نحو تأكيد هذا الاعتقاد، ومن الأمثلة التي قدمها أنهم كانوا ينشدون الشعر على موتاهم، بل إنهم كانوا لا ينشدونه في بعض الأحوال إلا وهم على وضوء، مثل ما فعلوه مع قصيدة المتلمس الميمية، واتخذوا الشعر أيضا وسيلة للتقرب إلى الله في موسم الحج، فيلبون بأشعار معينة، وهم يطوفون حول الكعبة[23]، وليست مسألة تعليق الشعر بأستار الكعبة إلا إقرارا من البعض، يدل على المكانة السامية التي حظي بها الشعر في تلك الفترة، إذ إن الكعبة كانت مجمعًا دينيًا يضم أصنامهم وأوثانهم.

---

16 . ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تح: سيد صقر، مصر، د ت، ص 14.

17 . السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، البابي الحلبي، دار إحياء الكتب، القاهرة، ط2، ص 470.

18 . ينظر: شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف مصر، ط8، ص 232.

19 . ابن قتيبة، الشعر والشعراء، مرجع سابق، ص226.

20 . راجع: كامل فرحان صالح: الشعر والدين، مرجع سابق، ص 28.

21 . المرجع نفسه، ص29.

22 . المرجع نفسه، 29.

23 . ينظر: كامل فرحان صالح، الشعر والدين، مرجع سابق، ص 30 وما بعدها، وجواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج9، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة بغداد. ط1، 1970، ص69، وأيضا: سامي العاني، الإسلام والشعر، ص15,

كل هذا له دلالة على القدسية التي حظي بها الشعر عند العرب فقد كان ديوان علمهم الذي كشف عن نواح مختلفة من عاداتهم، وتقاليدهم، وأساطيرهم، وممارساتهم الدينية في ذلك الزمن.

3. الشعر العربي القديم والعقائد الدينية

أ. الشعر العربي و الديانة الوثنية

قبل مجيء الإسلام، كانت الوثنية منتشرة في الحجاز ومكة ونجد، حيث كان لكل قبيلة صنم يعبدونه، فإذا أراد أحد أفرادها السفر، كان آخر ما يفعله في منزله التمسح بالصنم، كذلك يفعل عند عودته[24].

وقد كانت لأصنامهم أشكال متعددة، وأحجام مختلفة، تدل على مكانة القبيلة اجتماعا واقتصاديا، يقول ابن الكلبي: "فمنهم من اتخذ بيتًا، ومنهم من اتخذ صنمًا، ومن لم يقدر عليه، ولا على بناء بيت، نصب حجرًا أمام الحرم، أو أمام غيره، مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت، وسموها الأنصاب"[25]. ويظهر من أقوال القدماء أن الوثنية قديمة، ممعنة في القدم، وفي القرآن الكريم آيات عديدة تشير إلى القبائل السابقة التي عبدت الأصنام والأوثان[26].

غير أن الشعر العربي الذي وصل إلينا لم يتفاعل مع الديانة الوثنية إلا عرضًا، حيث كان الاستشهاد بأحد الأصنام، أو أي معبود آخر، يجيء ضمن حديث عن شيء آخر، وقلما نجد في هذا الشعر قصيدة تتحدث عن الوثنية لذاتها، وكل ما يمكن الاستفادة منه هو ما أظهره النص الشعري من أسماء المعبودات الوثنية، وبعض أماكنها، وأحيانًا وظيفتها، ولعل ذلك السبب عائد إلى أن من عادة العرب قبل الإسلام عدم الإسراف والإسفاف في ذكر أسماء الآلهة الخاصة في أدبهم، وذلك على سبيل التأدب تجاه الأرباب، فاستعاضوا عن الصنم بلفظة الله التي لم تكن إلها معينًا، وإنما تعني ما تعنيه كلمة رب وإله، ومن هنا كثر استعمالها في القسم، وفي التمني أو التشفي[27]، ومن الأمثلة : أقسم المهلهل برب الحل والإحرام:

قتلوا كليبًا ثم قالوا: ارتعوا كذبوا، ورب الحلّ والإحرام[28]

وقد أشار جواد علي في كتابه (المفصل) إلى أن رواة الشعر في الإسلام، قد أغفلوا أمر الشعر الجاهلي الذي مجد الأصنام و الوثنية، وأهملوه، فلم يروه، فمات، وأن بعضًا منهم قد هذّب ذلك الشعر وشذّبه، فحذف منه كل ما له علاقة بالأصنام والوثنية، ورفع منه أسماء الأصنام، وأحل محلها اسم الله، حيث يرد اسم الصنم، فما فيه اسم الله في الشعر الجاهلي، كان اسم صنم في الأصل[29].

وهناك جماعة من الشعراء انتموا إلى الوثنية، وحُفظ شعرهم من التلف والزوال بعد ظهور الإسلام، ومنهم زهير بن جناب الكلبي، وعبيد بن الأبرص الأسدي، وطرفة بن العبد، والمتلمس خال طرفة، والنابغة الذبياني، والأعشى، وحسان بن ثابت، وقيس بن الخطيم، ويلاحظ، أن هؤلاء الشعراء كانوا في معظمهم من أهل الحضر في مدن الحجاز[30].

---

[24] . ابن الكلبي، الأصنام، مرجع سابق، ص 33.

[25] . المرجع نفسه، ص 33.

[26] . ينظر: سورة هود، الآيات 53، 61، 62. سورة إبراهيم، الآية 9. سورة الأعراف، الآية 70. سورة الأنعام، الآية 74، وغيرها.

[27] . كامل فرحان صالح، الشعر والدين، مرجع سابق، ص38.

[28] . كامل فرحان صالح، الشعر والدين، مرجع سابق، ص39.

[29] . يراجع: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، ج6، ص12.

[30] . يراجع: كامل فرحان صالح، الشعر والدين، ص40، وكذلك ينظر: كارل نيلينو، تاريخ الآداب العربية، دار المعارف مصر 1970، ص71

والملاحظ أن أكثر الأصنام ذكرا في الشعر العربي القديم، هما "اللات و العزى"، فقد أقسم بهما، وبالله الأكبر منهما، الشاعر أوس بن حجر، إذ قال:

وباللاّت والعزّى ومن دان دينها ... وبالله، إن الله منهن أكبر[31]

يلاحظ من خلال هذا البيت أن القسم بالله الواحد "الأكبر"، كان متداولاً في الجاهلية، لكن ثمة من يشك في صحة الشطر الثاني من البيت، ويعتبر أنه من اختلاق الرواة المسلمين[32].

ب ـ الشعر العربي والديانة الحنيفية

يرى الباحث كامل فرحان صالح أنه من المؤكد، أن الحنيفية أثرت في المظاهر الاجتماعية والأدبية قبل الإسلام، وقد برز ذلك في الشعر بشكل جلي، إذ يلاحظ، من خلال هذا الشعر، أن الإسلام لم يكن قد أتى مفاجأة بلا إرهاصات، أو مقدمات دينية، إذ كان شعرها يمثل تلك الإرهاصات في أواخر العصر الجاهلي، كشعر زيد بن عمرو بن نفيل، وأمية بن أبي الصلت الثقفي، ولبيد العامري، وزهير بن أبي سلمى، وغيرهم من المتحنفين[33].

يقول زهير:

وما من يدٍ إلا يدُ الله فوقها ... وما ظالم إلا سيبلى بأظلمِ[34]

وقد أشار الباحث[35] إلى أن أكثر الشعراء تعبيرًا عن الحنيفية، إضافة إلى زيد بن نفيل، وأكثرهم غموضًا بالنسبة إلى العقيدة التي يؤمن بها، فهو أمية بن أبي الصلت، فقد وردت في شعره ألفاظ و معان تتكئ على مفاهيم دينية قاربت الأديان السماوية الثلاث، كما ذكر صاحب الأغاني أن أمية عوتب على عدم إيمانه بالإسلام، فقال: يئست من النبوة، وأصابني ما رأيت، إذ فاتني ما كنت أطمع فيه، ولما مرض قال: قد دنا أجلي وهذه المرضة منيتي، وأنا أعلم أن الحنيفية حق، ولكن الشك يداخلني في محمد، وحين دنت وفاته أغمي عليه قليلاً، ثم أفاق وهو يقول:

لبيكما ... لبيكما ... هأنذا ... لديكما

لا ... مال ... يفديني ... ولا ... عشير ... تنجيني

لا ... بريءٌ ... فأعتذر ... ولا ... قويّ ... فأنتصر

[31] . أوس بن حجر، ديوان، دار صادر، بيروت، د ت. ص 34.

[32] . كامل فرحان صالح، الشعر والدين، ص41.

[33] . كامل فرحان صالح، الشعر والدين ،ص46، وينظر: سامي العاني، الإسلام والشعر، مرجع سابق، ص23.

[34] . زهير بن أبي سلمى، ديوان، شرحه وقدم له عمر فاروق الطباع، دار القلم، بيروت، د ت. ص 70.

[35] . المعلومات التي قدمتها في هذا المبحث مستقاة من مجهود الباحث كامل فرحان صالح، ويمكن الرجوع إليه للمزيد من المعلومات ص 50 وما بعدها.

ثم قضى نحبه ولم يؤمن بمحمد، أما شعره فجاء فائضا بما ذكر في الكتب المقدسة: اليهودية والنصرانية، وما جاء بعد ذلك في القرآن، فيحضر النبي إبراهيم في مثال الطاعة والصبر في قصيدة تنسب إليه، وهي:

ولإبراهيم الموفى بالنذر ... احتسابا وحامل الأجزال

بكره لم يكن ليصبر عنه ... أو يراه في معشر أقتال

ابني إني نذرتك لله ... شحيطا فاصبر فدى لك خالي

فأجاب الغلام أن قال فيه ... كل شيء لله غير انتحال

أبتي إنني جزيتك بالله ... تقيا به على كل حال

فاقض ما قد نذرته لك واكفف ... عن دمي أن يمسه سربالي

واشدد الصفد أن أحيد عن ال ... سكين حيد الأسير ذي الاغلال

بينما يخلع السرابيل عنه ... فكه ربه بكبش جلال

قال خذه وأرسل ابنك إني ... للذي فعلتم غير قالي

وجاء في قصيدة له:

الحمد لله ممسانا ومصبحنا ... بالخير صبّحنا ربي ومسانا

رب الحنيفية لم تنفد خزائنه ... مملوءة طبق الآفاق سلطانا

الا نبيّ لنا منا فيخبرنا ... ما بعد غاياتنا من رأس محيانا

بينا يُربينا آباؤنا هلكوا ... وبينما نقتني الأولاد أفنانا

وقد علمنا لو أن العلم ينفعنا ... أن سوف يلحق أُخرانا بأولانا

إن العمق الديني في نظر الباحث لم يكن عابرًا عند هذه الفئة من العرب، فشعرها يختزن كمًّا خصبًا من الصور والألفاظ والقصص التي تتقاطع مع النصوص الدينية المقدسة، كما لا حظ الباحث أن الإسلام لم يكن قد أتى مفاجأة بلا إرهاصات أو مقدمات دينية، إذ كان شعر الأحناف يمثل تلك الإرهاصات، قبيل ظهور الإسلام، وأن العرب كانوا مهيئين وجدانيًا لحمل هذه الدعوة الإسلامية.

ج ـ الشعر والديانة اليهودية

عرفت الديانة اليهودية عند العرب قبل الإسلام، وقد اعتنقها كثير منهم، وقد سكن اليهود في مواضع عديدة، تقع ما بين فلسطين ويثرب، كما سكنوا في اليمن وفي اليمامة وفي العروض، وكان تجار منهم يقيمون في مكة، وفي مواضع أخرى من الجزيرة العربية للاتجار، وإقراض المال بربا فاحش للمحتاجين إليه[36].

وفيما يتعلق بتأثير اليهودية في الحياة العربية فقد ظهر في مجالات عدة، منها: الشعر، فيلاحظ دخول مصطلحات الديانة اليهودية في الشعر، مثل لفظة "حبر" التي تشير عند اليهود إلى العلم والمعرفة، ولا تزال مستعملة عنهم، فيمن درس الشريعة اليهودية والعلوم الشرعية، وتقدم فيها، وأتقن الأحكام، وقضى بين الناس، وجاء ذكر هذه اللفظة في شعر ينسب للشماخ:

كما خط عبرانية بيمينه بتيماء حبر ثم عرض أسطرا

وقد وردت لفظة "التوراة"، في بيت ينسب إلى شاعر جاهلي يهودي اسمه "سمّاك"، أما لفظتا "زبور" و "زبر" فقد وردتا في شعر منسوب إلى شعراء جاهليين، ففي بيت للشاعر امرئ القيس جاء:

أتت حججٌ بعدي عليها فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان[37]

وفي بيت آخر يقول:

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط زبورٍ في عسيب يمانِ[38]

وفي قصيدة لامية أبي الصلت، يشير فيها بوضوح إلى نزول "الزبر" من الله تعالى:

وأبرزوا بصعيد مستوى جرز وأنزل العرش والميزان والزبر[39]

أما الشاعر المرقش الأكبر، فيفهم من شعره أنه كان على اطلاع بكتاب الزبور، وبما جاء فيه، وقد قال:

وكذلك لا خير و لا شيء على أحد بدائم

قد خطّ ذلك في الزبو ر الأوليات القدائم[40]

ويمدح الأعشى المحلّق، فيذكر لفظة "اليهودي"، وبناء الملك سليمان بن داود لحصن يوصف ب "الأبلق"، مشرف على تيماء:

فما أنت إن دامت عليك بخالد كما لم يخلّد قبل ساسا ومورقُ

وكسرى شهنشاه الذي سار ملكه له ما اشتهى راح عتيق وزنبقُ

---

[36] . ينظر: كامل فرحان صالح، الشعر والدين، ص 85، وكذلك: جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص511.

[37] . الديوان، دار القلم، بيروت، ص 145.

[38] . الديوان، ص 147.

[39] . ينظر: الأب لويس شيخو، شعراء النصرانية، منشورات دار المشرق، بيروت، ط4، 1991، ص 184.

[40] . المرجع نفسه، ص 184.

ولا عاديا لم يمنع الموت ماله ... وحصن بتيماء اليهودي أبلقُ

بناه سليمان بن داود حقبة ... له أزجٌ عالٍ وطيءٌ موثقُ

يوازي كبيداء السماء ودونه ... بلاطٌ ودارات وكلس وخندقُ

فذاك ولم يعجز من الموت ربّه ... ولكن أتاه الموت لا يتأبّقُ

يشير الشاعر في هذه الأبيات أن الإنسان ليس بخالد حتى لو دامت عليه النعم، ساردًا قصص السابقين، والأماكن العظيمة التي اندثرت.

وقد لاحظ الباحث كامل صالح فرحان أن النصوص اليهودية، أو بعضها كانت معلومة لدى العرب، على الرغم من عدم التمكن من تحديد نسبتها، كما لا حظ أن ثمة إشارات عديدة، ولا سيما في شعر امرئ القيس، والأبيات التي ذكراها الشاعران الأعشى و النابغة الذبياني، يبدو فيها التأثر واضحًا بما سمعاه عن عظمة الملك سليمان، وبنائه لتدمر، ولحصن الأبلق، وللهيكل الذي أدهش العبرانيين، إذ من عادة العرب أن ينسبوا كل شيء قديم إلى حكيم بن إسرائيل[41].

ومن الشعراء اليهود، السموأل بن عاديا، صاحب قصة الوفاء المشهورة، وكعب بن الأشرف، وسمّاك اليهودي، وقد أشار الباحث إلى أن طريقة نظم هؤلاء للشعر لا تختلف شعر الشعراء الجاهليين، ومن الصعب ملاحظة تأثير النص الديني اليهودي المقدس فيه، فألفاظه عربية صافية نقية، وأفكاره على نمط أفكار الجاهليين، وهذا ما جعل المؤرخ جواد علي على التفكير في صحة هذ الشعر، وفي درجة تعمقه و فهم صاحبه للدين اليهودي.

والشعر المنسوب إلى السموأل غني بالإشارة إلى النصوص الدينية، ويتضح، في حال صحة نسب هذا عليه، إلى تعمقه وتأثره بهذه النصوص، ونشرها والدفاع عنها، وما يدفع لهذا الاعتقاد، ذكره في إحدى قصائده أسباط اليهود والتوراة والتابوت، يقول[42]:

وبقايا الأسباطِ أسباطِ يعـ ... قوبَ دارس التوراة والتابوت

وانفلاق الأمواج طهرين عن ... موسى وبعدُ المملّكُ الطالوت

ومصابُ الإفريس حين عصى اللـ ... ـه وإذ صابَ حينَهُ الجالوت

د ـ الشعر والديانة النصرانية

أشار المؤرخ جواد علي إلى صعوبة البحث في شعر عربي جاهلي متأثر بنصوص الكتاب المقدس، أو البحث عن شعراء يثبت اعتناقهم النصرانية، وتعود هذه الصعوبة إلى قلة المصادر التي تطرقت لهم[43].

[41] . كامل فرحان صالح: الشعر والدين، ص 88 وما بعدها.

[42] . انظر: كامل صالح فرحان، مرجع سابق، ص91 وما بعدها.

[43] . جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج9، ص 792.

ولعل الأب لويس شيخو من الأوائل الذين لفتوا نظر الباحثين إلى هذا الميدان، الذي تم إهماله وإغفاله، ومن الجهود التي بذلها إحصاء الألفاظ العربية التي ينم استعمالها عن صلة بالمسيحية من الأعلام مثل سيرجيس، أو عبد المسيح، أو أسماء عامة، مثل قلاية وقليس وجاثليق، وبطرك، وأسقف، وأرغن، فيثار، سنتور، إنجيل، جهنم، خوري، مصحف، صومعة، منارة، أبيل، دي، بيعة، إلخ ..

وترجع النصرانية أو النصارى الذين عرفتهم جزيرة العرب إلى هذه الطائفة من اليهود المنتصرين أو النصارى الموحدين أو الأبيونيين أو الناصريين، التي فرت من اضطهاد شيعة بولس، واستوطنت جنوب الشام على تخوم جزيرة العرب ومنطقة الحجاز، ويدخل في فرقتها كل الأسماء النصرانية التي وردت في سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، أمثال: بحيرى وسيرجيوس ونسطورس، وانسطاس وعداس وميسرة و ناصح، وأبرز ما في عقيدتهم: الولادة العذراوية لعيسى، وينمرون تأليهه وأنه مجرد نبي، ويلتزمون بكتب موسى والأنبياء، وهذه العقائد نفسها التي وردت في القرآن الكريم بخصوص المسيح عليه السلام[44].

كما يرجع الشعر الذي قالته العرب قبل ظهور الإسلام وخلاله مما اشتمل على إشارات دينية نصرانية إلى هذه الأفكار التوحيدية النصرانية، وقد أورد الأصفهاني أبياتا لورقة بن نوفل يرثي فيها زيد بن عمرو بن نفيل، جاء فيها[45]:

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما تجنبت نورًا من النار حاميا

بدينك ربًا ليس ربٌّ كمثله وتركك أوثان الطواغي كما هي

وقد أشار حسان ين ثابت إلى وجود نصارى ويهود بالمدينة كثيرًا في الشعر:

فرحت نصارى يثرب ويهودها لما توارى في الضريح الملحد[46]

ولعل من أكثر الشعراء الذين برزوا في شعر النصرانية عدي بن زيد العبادي، فهو نصراني، وقد أطلق لفظة "عبادي" أي عباد الله، على النصارى عامة، وعلى نصارى الحيرة خاصة، كما نص أهل الأخبار على تنصره[47].

وقد جاء في قصيدة قيل إنه نظمها في معاتبة النعمان على حبسه، تضمنت بيتًا احتوى على قسم برب الكعبة والصليب:

سعى الأعداء لا يألون شرًّا عليَّ وربّ الكعبة والصليب[48]

وقد أورد المرقش لأكبر في أحد أبياته قرع نواقيس الكنائس، فيقول:

وتسمع تزقاء من البوم حولنا كما ضربت بعد الهدوء النواقيس[49]

---

[44] . كامل صالح فرحان، الشعر والدين، مرجع، سابق، ص103.

[45] . المرجع نفسه، ص 103.

[46] . حسان بن ثابت، الديوان، مرجع سابق، ص 104.

[47] . ينظر: كامل فرحان صالح، الشعر والدين، ص 105.

[48] . لويس شيخو، شعراء النصرانية في الجاهلية، مرجع سابق، ص 451.

[49] . المفضل الضبي، المفضليات، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1968، ص 225.

غير أن الملاحظ في الأبيات التي تتعرض لمسألة التأثر لم تتعد ذكر المظاهر النصرانية، ومعظمها ورد تشبيهًا لشيء، أو وصفًا لحدث ما، ولم تتعرض الشواهد إلى المسائل الجوهرية في صلب العقيدة النصرانية[50].

5. خلاصات:

حاولنا من خلال هذا المقالة أن نعود بالشعر العربي القديم إلى الأصول الدينية له، وقد قمنا بذكر نماذج فقط على حسب التمثيل لا الحصر، فركزنا الحديث عن الوثنية والحنيفية واليهودية والنصرانية، ثم حاولنا مقاربة العلاقة والصلة المتشابكة بين الشعر والدين، من أجل بيان هذه النشأة التي حظي بها الشعر في حضن الدين، ومن هنا يمكن أن نخلص إلى النتائج الآتية:

- العلاقة بين الشعر و الدين موغلة في القدم وضاربة جذورها فيه.
- ارتباط الشعر بالممارسات والطقوس الشعائرية القديمة.
- الشعر في المجتمع العربي القديم كانت له وظيفة اجتماعية مركزية في حياتهم.
- ذيوع اعتقاد بأن الشاعر يتلقى الشعر من قوى غيبية ما ورائية كالشياطين والسماء.
- تأثر الشعر العربي بالنصوص الدينية قبل مجيء الإسلام، وقد تبين ذلك من خلال الشواهد المستقاة من دواوين العرب.

قائمة المصادر والمراجع

1. الأب لويس شيخو، شعراء النصرانية، منشورات دار المشرق، بيروت، ط4، 1991.
2. أوس بن حجر، ديوان، دار صادر، بيروت، د ت.
3. جان بارتليمي، بحث في علم الجمال، تر: أنور عبد العزيز، دار النهضة مصر ومؤسسة فرانكلين، القاهرة، 1970.
4. حسان بن ثابت، ديوان، شرحه وضبط نصوصه، وقدم له خوان عمر فارق الطباع، دار القلم، بيروت، د ت.
5. زهير بن أبي سلمى، ديوان، شرحه وقدم له عمر فاروق الطباع، دار القلم، بيروت، د ت.
6. سامي العاني، الإسلام والشعر، عالم المعرفة، العدد:66.
7. السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، البابي الحلبي، دار إحياء الكتب، القاهرة، ط2.
8. شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف مصر، ط8.
9. ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تح: سيد صقر، مصر، د ت.
10. ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، تح: محمود شاكر، دار المعارف القاهرة، 1982.
11. كامل فرحان صالح، الشعر والدين فاعلية الرمز الديني المقدس في الشعر العربي، دار الحداثة، بيروت ط1، 2005.
12. كارل نيلينو، تاريخ الآداب العربية، دار المعارف مصر 1970.
13. ابن الكلبي، الأصنام، تح: أحمد زكي باشا، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب القومية 1924، الدار القومية، القاهرة 1965.

[50]. كامل فرحان صالح، الشعر والدين، مرجع سابق، ص 109.

14. مبروك المناعي، الشعر والسحر، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2004.

15. محمد بن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، تح: محمود شاكر، المدني، القاهرة، 1974.

16. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج9، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة بغداد. ط1، 1970.

17. المفضل الضبي، المفضليات، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1968.

18. علي البطل، الصورة في الشعر العربي: حتى آخر القرن الثاني الهجري ـ دراسة في أصولها وتطورها، دار الأندلس، بيروت ط3، 1983.